مشيناها خطى

"قراءة تاريخية"

بقلم السيد فليفل
30 يوليو 2008

على الرغم من أن الدكتور رءوف عباس يقدم سيرة ذاتية في "مشيناها خطى، وأنه سجلها كحاكٍ استجابة لرغبة أصدقائه، إيمان يحيى وعبد العال الباقورى وأحمد غزلان، إلا أن "مشيناها خطى" هى في رأيي، وإن صح تعبيري "تاريخ مصر المعاصر على مستوى الفرد، والفرد هنا مؤرخ اجتماعي مرموق. ودليلي على هذا أن سيرة البطل في "مشيناها خطى" تصعد مع صعود يوليو، وتصاب بالإحباط مع أفول نجمها، تصعد مع الصعود القومي، وتحبط مع كامب ديفيد والتشرذم القومي، وشيوع القبول بالهيمنة الأمريكية والوجود العسكري هنا وهناك على أرض العروبة، وبصفة خاصة بعد احتلال العراق.

وإذا جاز أن يكون التاريخ الاجتماعي هو تاريخ صورة فردية لتاريخ الوطن، وإذا جاز أن يكون تاريخ الوطن هو تاريخ فرد، فإن من حسن حظ المهتمين بالتاريخ الاجتماعي المصري المعاصر أن هذا الفرد هو رءوف عباس، وأنه اختار زاوية للرؤية تنبعث من موقف الاستقلال الفكري، بما يضمن الموضوعية، ولكنه يرصد التاريخ رصد المواطن المنتمى للأغلبية الصامتة غير الحزبية، ولا الخارجة على السلطة، بل الناقدة لها، حتى لو انتمى إليها.

وهكذا فالمؤرخ المرموق يجسد القطاع العريض من المصريين ذوى الظل الخفيف، والنكتة "الحراقة"، ممن استفادوا من كل إصلاح اجتماعي وتعليمي وصحي يستهدف المصريين أجرته ثورة يوليو، وبالتالي كان ممن تضرروا من كل نوبات الجشع التي امتلكت طبقة رجال الانفتاح ثم رجال الخصخصة فيما بعد.

من ثم فإن الحس التاريخي لصاحب السيرة، يبدأ باستدعاء الماضي مبررا للتسجيل، فتحول إلى راو شفهي، وهو يقرر بداية أن ينقل صورة هذا الماضي من قصة يحكيها إلى تجربة يقدمها لأبناء الجيل الجديد، هى تجربة الانتقال من العهد الملكي إلى العهد الجمهوري، تجربة الثورة والنهوض الاجتماعي والقومي، ثم تجربة الانتكاس الاجتماعي والقومي؛ وبهذا تحدد إطار عمر التجربة منذ مولده ووالده رحمهما الله قبيل الحربين الأولى ثم الثانية على التتابع إلى احتلال الولايات المتحدة الأمريكية، كضربة قاسية لوجودنا القومي العراق عربيا، واختلال الواقع الاجتماعي في مصر وطنيا.

يبدو رءوف عباس في سيرته أبعد من أن يكون مواطنا عاديا، بل وأبعد من أن يكون مواطنا مؤرخا، إنه أيضا مواطن ووطن، إذ أنه يبدأ السيرة على شط القناة، فاختار المكان الذي يجسد أزمة مصر مع الاحتلال البريطاني، وفي عين المكان على شط القناة بورسعيد، المدينة الباسلة ورمز يوليو العظيم في حرب التحرير، وفي عين عيون المكان منزل عمالي بسيط عند كوبري الرسوة قرب موقع معسكرات القوات البريطانية في قاعدة قناة السويس، نحن إذًا بصدد زمان واضح ومكان واضح، وصاحب السيرة لديه الرؤية التاريخية الواضحة تماما.

سجل رءوف عباس على نفسه إقرارا بأن لا يكذب في تسجيله للحقيقة في أبسط الأشياء، ورأى الأمانة أن يذكر الواقع الاجتماعي البسيط بتفصيلاته وانفعالاته مهما كان مقدار الحرج، لم يزعم انتماءً ليس له، ولم يجمل حقائق مريرة، ولم يفسر أو يؤول التصرفات الخاطئة، حتى لو كانت لأقرب الأقربين، وأمانة المؤرخ هى مدخل الحقيقة التاريخية، وموضوعيته واستقلاليته هى عين هذه الحقيقة. ففيم الجدال إذًا؟

وكان حريا بالذين غضبوا لأنفسهم مما ذكر، أن يراجعوها بنفس لوامة، وأن يلتمسوا منه المعذرة والسماح، قدم رءوف هنا حياة مصر الفقيرة المعدمة، وطنا محروما، يشترك بنوه مسلمين وأقباطًا في صوم إجباري بالمفهوم القبطي إذ يمتنعون مجبرين عن تناول اللحوم إلا في المواسم والأعياد، ويقدم صورة نسوة يتبادلن إرضاع الأطفال ورعايتهم في الأمور الطارئة، ويتبادلون واجب عيادة المرضى وتقديم التهاني والتعازي. هذه هى صورة مصر الشعبية وهى أصل الوحدة الوطنية العتيدة على مر الأيام وكر الدهور.

يسجل رءوف عباس الحالة الاجتماعية في قرية هرمس بوضوح مخرجا من حالة الفقر المدقع فيها ثلاثة بيوت: بيت الرافعي، وبيت الشامي التاجر الفلسطيني، وبيت فنان الزجاج المعشق محمد عمر، فهنا فقط ماء وكهرباء. في هذه البيوت ميسورة الحال عزلة بينة عن المحيط الاجتماعي الفقير المدقع. وصاحبنا يتردد على زاوية الرافعي للصلاة والدروس بحرص بالغ، لعله يفسر لنا سر زهده الطويل، وحكمته البالغة عبر سبعين عاما، مع تمسكه بالأخلاق الرفيعة والقيم السامقة، رغم ميوله اليسارية المعروفة، والتي تبدو عند نهاية الرحلة قيما واحدة مترابطة موصولة، ما كان منها دينيا كان سماوي المنزل، وما كان منها طبقيا كان أرضى الصعود، التقيا على عقل ذكى وقلب نقى، وهذان هما الأصلان الأولان لقيم رءوف: أولهما منبت ديني عميق لا يحب أن يفاخر به، وكيف يفاخر به وهو يعلم أن تلك نقيصة تتناقض مع كبريائه وأنفته وشجاعته؟ وثانيهما قيم العدالة الاجتماعية التي غرستها الثقافة الاشتراكية في بداية تكوينه. الأول من السماء مهبطه، والثاني من الصراع الطبقي مصعده: عدل الإسلام وعدالة اليسار: شئ واحد عند رءوف.

ولعل دفاعه عن الإسلام وما اتهمه به المستشرقون، فضلا عن آخر سطوره في خطى مشيناها "كرامة جلية للرجل، فقد مات واقفا، لم يسقط القلم من يده، وظل قادرا على التفكير حتى النفس

الأخير. لم يرهب الموت ولم يخشه، ولم يخشاه وقد رضى بأقدار الله الذي ترك له الأمر كله، مثل أى زاهد متصوف وعالم محقق؟

مرحلة التعليم في حياة رءوف تبين شظف العيش، والحاجة إلى الدعم، لكنها تظهر معدنا أصيلا راغبا في الرفعة والصعود، ملتمسا للمعارف والآداب والفنون، التي صاغت العقل والقلب مرهفين حساسين. ولا ينسى رءوف أن يذكر بتجلة عمدة قرية سقيل ذلك الشيخ المهيب الذي حمل من البك صاحب العزبة بطاقة توصية ليدخل مدرسة السيدة/ حنيفة السلحدار، ثم يجرب الوحدة والبعد عن الإخوة، كما يجرب حياة الريف في طوخ، ويعرف واقع مصر الاجتماعي في شبرا معرفة تفصيلية، مكنته من بعد ذلك أن يكون مؤرخا اجتماعيا مرموقا.

ويسجل رءوف عباس بكل التقدير وأيضا بكل النقد أسماء معلميه في المراحل المختلفة بدءا ممن علمه الفرنسية حتى تفوق فيها، وانتهاء بالمدرس الفرنسي الذي لم يفده شيئا، وكان التلاميذ يضربون قفاه بنبال الورق.

وهنا جانب من السخرية من ذلك المعلم الأجنبي، وذكر بين لتفوق المصري عليه حتى في لغته الوطنية، وهذا ملمح لا يمر دون وقفة متأملة لحس وطني مبكر عند رءوف عباس، وهذا الحس يتأكد خلال محاولته التطوع مع الفدائيين للذهاب إلى بورسعيد خلال عدوان 1956، حيث لم يتحمل سخرية مدرس جند ضابطا احتياطيا قابل محاولته بسذاجة، فهدده رءوف بأن يشكوه إلى عبد الناصر. فكأنما تفرز هذه التجربة مفارقة واضحة بين من يأخذون الوطن بجدية، ومن يهزلون في حبه، وأنه كانت للوطنيين مرجعية سجلها رءوف بعفوية، فمرجعية الوطنية هى نفسها قيادة الدولة؛ عبد الناصر، فقد حسبه جادا في حبه لوطنه وليس هازلا.

وعند هذا الهزل الوطني يسجل رءوف إن كلمات هذا الضابط الاحتياطي جعلت "الأرض تميد من تحته"، وهو لم يفهم كيف يتدرب على السلاح ولا يذهب إلى القتال دفاعا عن وطنه مثل أولئك الأبطال الذين يسمع أخبارهم في موطنه بورسعيد.

تبدو شخصية رءوف "الأستاذ" الكريم في صورة بهية جليلة وهو بعد لم يلتحق بالجامعة، فهو يلتقي بعبد الحكيم أفندي الموظف بمصر للتأمين الذي أقرضه ثلاثة جنيهات للتقديم للجامعة، مقسما عليه بالطلاق أن يقبلها، ثم يروى أن جفنه لم يغمض في قرية هرميس ليلتها. ولقد كرر رءوف موقف عبد الحكيم أفندي مع تلاميذ كثر، كما أنه لم يكن يحب أن يرى أحدا في موقف الحاجة ، وتأصلت فيه شخصية العطاء والأنفة من الاحتياج في ذات الوقت.

يقدم رءوف عباس وجهة نظره في التحول الاشتراكي ببساطة متناهية، فالرجل يقول إن المجلس القومي للإنتاج والمجلس القومي للخدمات أعدا كثيرا من المشروعات الاستثمارية للنهوض بالبلاد خلال الفترة من بعد فشل العدوان الثلاثي حتى 1961 دون جدوى، ومن ثم جاء

إعلان القرارات الاشتراكية وتمصير الشركات والبنوك الأجنبية إجراءً اضطراريا ومخرجا حتميا لإنقاذ الاقتصاد الوطني من التردي، ولكي تنفذ الدولة بنفسها ما تريد تنفيذه من مشروعات اقتصادية.

وفي الجامعة يلحظ رءوف عباس صراع الأساتذة على المنافع، ويلحظ أيضا كيف قسم تاريخ العصور الوسطى لعصرين: إسلامي ووسيط، وجاء على رأس كل تخصص منهما أستاذ متخصص في العصر المملوكي، كما لاحظ أثر الصراع في جعل مواد التاريخ القديم في السنة الرابعة، تسبقها مواد التاريخ الوسيط والحديث، وهو يذكر أساتذته بكل تجلة واحترام، كما تحدث باحترام للروح الجامعية الحقة، حيث لا مذكرة ولا كتاب جامعي، وحيث البحوث والتردد على المكتبة، والحوار المنضبط بين الطالب والأستاذ.

ويجسد رءوف تأثره المبكر بمدرسة أستاذنا أحمد عبد الرحيم مصطفى، الذي دله على المنهج العلمي في التفكير، وعلى الموضوعية في البحث، كما دله على الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التي صار رءوف فيما بعد رئيسا لها، ومؤسسا ثانيا لها. وهو لا ينسى أن يقارن بين الأستاذ الكريم الذي استقبل طلابه في بيته مرحبا، وبين الآخر ذي الأصول التركية، الذي يرى في الطلاب الواقفين قربه سربا من الذباب يعف على سيارته الفارهة، وقد صارت الجامعة مرتعا خصبا لأولاد الفلاحين الرعاع.

وقف المؤرخ الاجتماعي الوليد موقف المتعلم في الحياة الاقتصادية المصرية حين عمل رءوف عباس مراجعا للحسابات بالشركات المالية والصناعية المصرية بعد تأميمها، ليشهد تاريخ مصر الاقتصادي/الاجتماعي من الداخل والواقع، وليس فقط من الوثائق، ويكون شاهدا على التحول إلى التأميم، وعلى امتداد مظلة التأمينات الاجتماعية، وعلى نيل حقوق العمال، ثم يمتد به العمر ليشهد تآكلها أو على الأصح قولوا أكلها وهضمها.

في الشركة عرف رءوف صور الفساد المالي والإداري، وعرف مدى غلبة أصحاب النفوذ، والفارق بين المبدأ الذي يمثله ناصر وبين الواقع المعاش، وتعرف على دور الثورة المضادة – حتى في ظل وجود عبد الناصر- في قمع الوطنيين الحقيقيين، وتشويه صورة النقابيين الناصريين، ولمس مباشرة مرارة الصراع الاجتماعي، فكان هذا مدخله إلى دراسة تاريخ الحركة النقابية المصرية منذ نشأتها حتى قيام الثورة، كرسالة ماجستير تحت إشراف أستاذنا عزت عبد الكريم، ثم رسالة الدكتوراه عن الملكيات الزراعة الكبيرة بين عامي 1837و1914، والتي ضحى في سبيل إتمامها بوظيفته مقابل منحة صغيرة غير مضمونة، مسجلا مخاطرة كبرى في سبيل استكمال دراسته العليا، مجسدا مدى رغبته في المعرفة، وحسبانه الأستاذية مغرما لا مغنما.

قصة تعيين رءوف عباس بالجامعة تجسد المقادير التي لا يملكها الإنسان، وتقع بكاملها بيد العلي القدير، الذي يرعى من هو حقيق بالفرصة. فإعلان يصدر لشخص بالتفصيل، فيكون الأنسب له من لم يحسب أحد حسابه، ومن ثم تفتح المقادير الباب واسعا ليكون رءوف الأستاذ المعروف. وتجسد قصة تعيين رءوف أيضا إصراره على نيل حقه وفقا لقواعد العدالة، واحتكاما إلى تكافؤ الفرص، وانطلاقا من الدرجات الدالة على الكفاءة لا شئ غيرها، رغم ضغوط أساتذته عليه لكى يترك التقدم للإعلان لصالح من فصل له هذا الإعلان.

أما إصرار رءوف أن يظل إشراف رسالته لأستاذه أحمد عزت عبد الكريم بعين شمس، ووقفته أمام أستاذنا محمد أنيس الذي أمره بنقل الإشراف إليه، فيجسد احترامه للأستاذ الذي علمه، مهما كان موقفه من التحاقه بوظيفة معيد. وفي هذا الموقف من التعقيد النفسي ما فيه، ولكن فيه أيضا ما يدل على وضوح الرؤية، وعدم خلط الأوراق، وعدم البحث عن المصلحة العاجلة. وعندما وُضعت أنا نفسى في نفس الموقف بعد عقد واحد من الزمان ولم أرض بأستاذي بديلا، وجدت رءوف عباس يشد من أزرى ويتواصل مع أستاذي أحمد أحمد الحتة مزكيا ومعضدا. فكان لقاؤنا مبدئيا ونفسيا في آن معا.

وقصة العمل الجامعي عند رءوف قد لا تكون واضحة عند من لم يعرفوا قسم التاريخ بآداب القاهرة، في الستينيات والسبعينات، فقد كانت فيه أسماء لامعة، لكن طريق الصعود لم يكن متاحا، حتى جف القسم ويبس، فإذا توسد رءوف رئاسته فتح الباب على مصراعيه، وعين المعيدين والمدرسين المساعدين، وأقام السمنار الذي صار قبلة للباحثين.

ومن عجب أن إصرار رءوف على أن تكون الدرجات حكما في اختيار الكوادر العلمية والذي فتح الباب للكثيرين هو سبب معاركه الكثيرة التي خاضها لا من أجل نفسه، بل من أجل غيره، وسعيا لإحقاق الحق. ومن عجب أيضا أن تكاثر وتجمع من أصابتهم كلماته في نيل فرص ليست لهم، رغم أنه كان يعنى بها أشخاصا آخرين. وفي هذه النقطة – اختيار الكوادر- لم يميز رءوف بين مسلم ومسيحي، ولا بين طالب وطالبة، فقط كان التميز هو أصل التمييز.

وفيما يتعلق بالأساتذة الكبار فقد تكررت المواقف بين رءوف وبينهم يجمع فيها بين معضلتين لا يجمع بينهما إلا نبيه: احترام الأستاذ وتقدير دوره، واحترام النفس وعدم القبول بالامتهان ولو من الأستاذ.

في التشريقة اليابانية أسس رءوف علاقات علمية جديدة، وفتح باب الدراسات الآسيوية على مصراعيه للمصريين، كما عقد مقارنات مذهلة بين تجارب النهوض المصري واليابانى، وكذا بين الإسلام والديانات الشرقية الوضعية، كما تفهم مجتمعا جديدا وأدار حوارات ثرية حول القضية الفلسطينية والعرب والعصر، وأسهم في افتتاح قسم اللغة اليابانية بجامعة القاهرة،

وعملا مترجما عن ضحايا هيروشيما قدمه "لأصدقاء أمريكا.. عظة وعبرة"، وهم لا يتعظون ولا يعتبرون لا من الكتاب ولا من ضرب بغداد بعد ذلك بربع قرن.

وفي اليابان أيضا تعرف رءوف عباس على موقف الشعب الياباني من السلع الأمريكية، وهو موقف شبيه بموقف الشعب المصري حب في قضايا المقاطعة لسلع المعتدين ورفض التطبيع مع الكيان الصهيوني.

في قطر تعامل رءوف عباس مع التكوين النفطي لمجتمع خليجي صغير بصرامة الأستاذ المصري الغيور، وفرض على الطلاب قواعد عمل جامعي منضبط صار علامة عليها في مصر وبلاد العرب جميعها.

لرءوف عباس صفحة مطوية لم تفتح بعد، وهى تلك المتعلقة بدوره في الدراسات التاريخية العربية، عبر إشرافه على العديد من الرسائل لدرجتي الماجستير والدكتوراه بمعهد البحوث والدراسات العربية، فقد قدم الراحل الكريم خبرته وعلمه لعشرات الطلاب من المغرب إلى البحرين بتجرد وإخلاص شديدين.

في رئاسته لقسم التاريخ أدرك رءوف أن عليه أن ينشئ الكوادر، ويؤسس السمنار، ومجلة المؤرخ المصري، وتمكن أن يكون الضمير الحي اليقظ، الراعي للقيم الجامعية، وأن يكون المدافع عن تكافؤ الفرص، رغم ما في ذلك من معارك جامعية.

معارك أخرى وطنية متعلقة بالنسيج الاجتماعي والوحدة بين أبناء مصر مسلمين وأقباطا مضت مع رءوف تصل مشهد الأم المسيحية ترضع طفلا مسلما للذي خبره طفلا، إلى وقفته أستاذًا بخصوص انتداب يونان لبيب للتدريس بجامعة القاهرة، إلى وقفته في تعيين معيده مسيحية، إلى وقفته في معهد الدراسات الوطنية مع وزير الثقافة منصور حسين بخصوص يونان أيضا ومعه إسحق عبيد. هذه المعارك تبرز أن نظام السادات أخرج الجان من القمقم وزرع في بيئة التسامح المصرية عفاريت يجب صرفها. ومن عجب أن بعض المسيحيين من الخارج تاجر بالقضية ليثبت على النظام موقفا سلبيا، وأن بعضهم الآخر من الداخل ظاهر النظام لينال مأربا أو لينتقم من موقف.

من معارك رءوف معركة استقلال الجامعة، وفيها ما فيها من مواقف صلبة تحتاج من أجيال الجامعيين الأحياء الثلاثة في وقتنا هذا: الشيوخ والأساتذة والشباب وقفة مراجعة للتفريط الرهيب الذي شاركوا فيه جميعا، بحق هذا الاستقلال، وبحق القيم الجامعية، وبحق مستوى التعليم الجامعي.

وتبقى لفتات ذكية للمرات التي ذكرت فيها قيادات مصر من لدن فاروق وعبد الناصر إلى السادات ومبارك، تؤكد أن الرجل كان وقافا عند العروبة والوطنية وحقوق الجماهير، وبنى احترام لمن وقف عندها من القادة، وسحب احترامه ممن أعطاها ظهره.

تلك هي قراءتي التاريخية لمشيناها خطى، أقدمها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.